الماء والقداسة: المعارف البيئية التقليدية واستدامة الموارد المائية

Water and Sacredness: Traditional Ecological Knowledge and the Sustainability of Water Resources

سعيد انخيلي NKHAILI SAID

دكتور في القانون العام

الملخص :

تستعرض هذه الدراسة ظاهرة تقديس الماء بوصفها سيرورة سوسيو-ثقافية وأخلاقية، من خلال دراسة الآليات التي تعتمدها المجتمعات في صون أنظمة المياه التي تضفى عليها صفة القداسة، وذلك من خلال الطقوس والمحرمات ومنظومات المعارف والتجارب المحلية، وكذلك كيفية تحول هذه النظم في ظل الحداثة. وذلك استنادا إلى كتابات علمية حديثة، وانطلاقا من سياقات جغرافية متنوعة أظهرت أن قديس الماء ينتج قواعد أخلاقية أسهمت تاريخيا في دعم ممارسات الحفاظ على الموارد من خلال أعراف تفرض وتراقب مجتمعيا.

على الرغم من أن مسارات التحديث، وتسليع الموارد، وأنماط التدبير التكنوقراطي التي تقودها الدولة قد أسهمت في تقويض العديد من الممارسات التقليدية، فإن نتائج الدراسة تبرز أن تبني نماذج تدبير هجينة، تجمع بين صون الممارسات المرتبطة بقداسة الماء وتفعيل الآليات المؤسسية الرسمية، من شأنه أن يعزز القيم البيئية ويحسن ديناميات استدامة الموارد المائية. وتخلص الدراسة إلى أن الإقرار بالقواعد العرفية، وتبني أنماط حكامة متعددة المستويات، وإدماج المعارف البيئية التقليدية ضمن السياسات العمومية، تمثل مرتكزات أساسية لتفعيل أدوار التقديس ضمن مسارات الاستدامة البيئية.

الكلمات المفتاحية: تقديس الماء – الطقوس- المجتمع المحلي – الحكامة متعددة المستويات- المعرفة المحلية.

Abstract :

This study examines the phenomenon of the sacralization of water as a socio-cultural and ethical process by exploring the mechanisms through which communities protect water systems regarded as sacred. It focuses on the role of rituals, taboos, local knowledge systems, and lived experiences, as well as on the transformations these systems undergo under modernity. Drawing on recent scholarly literature and diverse geographical contexts, the study shows that the sacralization of water has historically generated ethical norms that supported resource conservation practices through customary rules enforced and monitored collectively by communities.

Although processes of modernization, resource commodification, and state-led technocratic management have contributed to undermining many traditional practices, the findings of the study highlight that adopting hybrid management models—combining the preservation of practices linked to the sacredness of water with the activation of formal institutional mechanisms—can strengthen environmental values and improve the sustainability dynamics of water resources. The study concludes that recognizing customary norms, adopting multi-level governance approaches, and integrating traditional ecological knowledge into public policies constitute essential foundations for activating the role of sacralization within pathways toward environmental sustainability.

Keywords: Water sacralization – rituals – local community – multi-level governance – local knowledge.

مقدمة

عبر مختلف المجتمعات الإنسانية، يتبوأ الماء موقعا هاما يجمع بين تقاطع الضرورة المادية والدلالة الرمزية. رغم أن الماء من منظور الطبيعة يمتلك خصائص فيزيائية موحدة، فإن أبعاده الاجتماعية والثقافية تتسم بالتعددية والتنوع[1]. ففي حين تتعامل مقاربات حكامة المياه المعاصرة مع الماء باعتباره موردا طبيعيا خاضعا للتدبير التقني والتقييم الاقتصادي، تواصل العديد من المجتمعات تمثل المصادر المائية بوصفها كيانات مقدسة، محملة بقيم أخلاقية ومعانٍ كونية. ضمن هذا الإطار، تسعى هذه الدراسة إلى تحليل ظاهرة تقديس الماء باعتبارها جملة من العمليات السوسيوثقافية التي يعاد عبرها تشكيل الماء ككيان مقدس، كما تبحث سبل استمرارية هذه الظاهرة من خلال أنظمة تزاوج بين طقس المباح والمحظور ، وتبحث في تحولاتها في ظل شروط الحداثة، فضلا عن استكشاف إمكانات توظيفها في تقوية الأخلاقيات البيئية وتعزيز حكامة مستدامة للموارد المائية في السياقات الراهنة.

وإجمالا تتناول الدراسة إشكالية تحاول مقاربة إلى أي مدى تمكن عمليات تقديس الماء المجتمعات من صون الموارد المائية، وكيف تتأثر هذه العمليات بالتحولات الحديثة، وإلى أي حد يمكن توظيفها في تعزيز الحفظ البيئي وحكامة المياه المستدامة؟ وهي الإشكالية التي تفرض تفكيكها إلى محاور ثلاث تبحث في الأسئلة الفرعية التالية:

- كيف تجسد المجتمعات عمليات تقديس الماء وتحافظ عليها من خلال الممارسات الثقافية وأنظمة المعرفة المحلية؟
- كيف أثرت عمليات التحديث، وتسليع الموارد، وتدخل الدولة في إعادة تشكيل أنظمة تقديس المياه التقليدية؟
- هل يمكن توظيف عمليات تقديس الماء لتعزيز ممارسات الحفاظ على البيئة ؟

تبرز هذه الأسئلة أهمية فهم تقديس الماء في ظل تفاقم أزماته عالميا، وعجز المقاربات التكنوقراطية التقليدية عن التعامل مع التعقيدات السوسيو-إيكولوجية المتشابكة. وتبين هذه الدراسة أن نظم تقديس المياه لا تمثل مجرد بقايا تاريخية، بل تشكل موارد أخلاقية وآليات حكامة قابلة للاستثمار، يمكن أن تكمل التدابير الرسمية، وتعزز الامتثال المحلي، وتسهم في تطوير أنماط تدبيرية أكثر توافقا مع البعد الثقافي وأكثرفعالية على المستوى البيئي.

أولا– الأسس النظرية: الماء بوصفه منفعة عامة مقدسة

يركز هذا المحور أولا على السرديات الكونية والسلطة الأخلاقية المرتبطة بالماء، ثم يستعرض التقديس باعتباره عملية سوسيو-ثقافية تشكل إطارا لفهم الممارسات والقيم المجتمعية المرتبطة بالموارد المائية.

1– السرديات الكونية والسلطة الأخلاقية

عبر سياقات ثقافية متنوعة، لا يفهم الماء باعتباره مجرد عنصر كيميائي(H_2O) ، بل بوصفه كيانا مشحونا بالقيم الأخلاقية ومندمجا ضمن سرديات كونية تحدد طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة. ففي حوض ميكرو (Mekrou) بغرب إفريقيا،

[1] حبران، حسن. الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب. إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، يناير 2022. ص 197.

ينظر إلى الماء على أنه مأوى للآلهة، ويحمل أبعادا ثقافية وطقوسية تستدعي الاحترام وتفرض التزامات تبادلية بين الإنسان والطبيعة[1]. وعلى نحو مماثل، ترى مجتمعات الأنديز الماء كيانا مقدسا ومحوريا في رؤيتها الكونية، حيث يجسد رمز "تشاكانا " (Chakana) ترابط الماء والحياة وأنماط الحكامة المجتمعية[2] . وفي شمال غانا، تؤدي الآلهة المرتبطة بالماء أدوارا أساسية في الطقوس والمهرجانات ومراسم التطهير، مما يرسخ مكانة الماء كوسيط روحي بين العالمين البشري والإلهي[3].

تحول هذه التجارب وغيرها الاعتماد الإيكولوجي إلى التزام أخلاقي. فالماء يصور أيضا في التراث الأدبي العربي بوصفه رمزا للحياة والنقاء والفضيلة، إذ يستخدم الشعراء العرب الماء للتعبير عن القيم الأخلاقية والروحية في صور شعرية متعددة، مما يعزز فكرة أن الماء ليس مجرد مادة بل يحمل دلالات ثقافية وأخلاقية عميقة في الوعي الاجتماعي[4].

هكذا، يصور الماء على أنه هبة إلهية تستوجب الامتنان والرعاية، لا سلعة قابلة للاستغلال غير المحدود[5]. ففي مجتمعات السكان الأصليين في أمريكا الجنوبية، يحتل الماء موقعا مركزيا في الرؤية للكون، حيث لا تزال الممارسات العريقة حاضرة في اللغات المحلية وأنماط العيش اليومية[6]. وتنتج هذه السرديات ما يمكن تسميته بـ"السلطة الأخلاقية للماء"، بمعنى إطار قيمي يصبح فيه الماء ذاته مصدرا للأمر والنهي، يفرض احترامه ويملي التزامات على السلوك الإنساني[7].

2- التقديس بوصفه سيرورة سوسيو-ثقافية

لا يعد التقديس خاصية ثابتة أو معطى ناجزا، بل هو عملية سوسيو-ثقافية دينامية تنخرط فيها المجتمعات بصورة مستمرة لإنتاج وإعادة إنتاج الطابع المقدس للماء وتعزيز هذا الطابع. وهو ما يتحقق عبر جملة من الآليات المتداخلة التي يبقى من

[1] Ngobi et al., "Regles traditionnelles de protection des ressources en eau dans le bassin versant de la mekrou (sous bassin beninois du fleuve niger, afrique de louest)," 2019. DOI: 10.5281/zenodo.3477943

[2] Cachipuendo et al., "The Chakana: a symbol of the Andean worldview in community water management, and a form of governance of life," Ecology and Society, 2025. DOI: 10.5751/es-16388-300324

[3] Spiritual Ramifications of Water: The Role of Water Divinity in Some Cultures in Northern Ghana," 2025. DOI: 10.5281/zenodo.17252712

[4] Ahmed, A.- addin H., & Mohamed Karim, M. (2022). رمزية الماء في الشعر الأموي والعباسي: Symbolism of Water in the Umayyad and Abbasid Poetry. SIBAWAYH Arabic Language and Education, 3(1), 36-51. https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol3.1.3.2022

[5] Catalão et al., "Water and Heritage: Sustainable Alternatives Based on the Worldviews of South American Communities," Blue Papers, 2023. DOI: 10.58981/bluepapers.2023.2.02

[6] Catalão et al., op.cit.

[7] Catalão et al.,op. cit.

أبرزها أداء الطقوس، ونقل السرديات، وتحديد المجالات والأماكن المقدسة، وبناء الإيقاع الزمني من خلال المراسم الموسمية، إضافة إلى إدماج المعايير المرتبطة بالماء ضمن منظومات أوسع من الهوية الاجتماعية والذاكرة الجمعية[1].

أما لدى جماعة بابالاكتا (Papallaqta) في جبال الأنديز الكولومبية، فتندمج أطر الحكامة البيئية–الروحية مع مبادئ كونية، بما ينتج ما يسميه غارسيا–تروخيو "الحكامة الإيكو–روحية"[2]. ومن جهة أخرى، تتبنى شعوب تلينغيت وتاغيش تصورات قرابية للماء، حيث ينظر إلى مصادر الماء باعتبارها أقارب تربطهم بالبشر علاقات تبادلية قائمة على المسؤولية والاحترام[3].

هذه العمليات من شأنها بالمحصلة أن تعمل على ترجمة العلاقات الإيكولوجية إلى التزامات أخلاقية واجتماعية، وأن تنتج معايير تنظم الولوج إلى الموارد المائية واستخدامها وحمايتها. ذلك أن التقديس لا يعمل بمعزل عن الممارسات المادية، بل يتشابك بعمق مع أنظمة العيش، والدورات الزراعية، وبنيات الحكامة المجتمعية، بشكل يعكس ترابطا وثيقا بين البعد الرمزي والبعد العملي في تدبير الموارد.

ثانيا– آليات التقديس وصيانته

نهدف هنا إلى دراسة أشكال المحافظة الاجتماعية على الماء، بدء من الطقوس والممارسات الاحتفالية التي تجسد القيم الروحية والثقافية، مرورا بصيغ متنوعة من المحظورات والقيود التي تنظم السلوكات وتحد من الاستغلال المفرط، وصولا إلى نظم المعرفة المحلية والممارسات التقنية التي توفر أدوات عملية لتدبير الموارد المائية بشكل مستدام.

1– الطقوس والممارسات الاحتفالية

تشكل الطقوس الآلية الأساسية التي تجسد من خلالها المجتمعات عملية تقديس الماء وتعمل على استدامتها. إذ تؤدي هذه الممارسات الاحتفالية وظائف عدة، من بينها الإقرار العلني بالطابع المقدس للماء، وتجديد الالتزام الجماعي بحمايته، ونقل المعارف عبر الأجيال، فضلا عن إتاحة فضاءات جماعية للرصد واتخاذ القرار بشأن إدارة الموارد المائية.

هكذا، تلعب طقوس الماء والزراعة الممارسة من لدن الساكنة المحلية، أدوارا في نقل الطقس من زمنه الدنيوي إلى زمنه «القدسي»[4]. ففي واحة سكورة يمارس السكان المحليون مجموعة من الطقوس الحاملة للعديد من الدلالات الثقافية، التي تترجم إلى مظاهر اجتماعية دالة على نمط عيشهم، وطبيعة اقتصادهم غير المستقر والمشروط بالماء والتساقطات المطرية[5]. أما في شمال غانا،

[1] Narasimham et al., "Sacred streams and traditional eco-consciousness: investigating the role of river rituals in Sanātana Dharma," GeoJournal, 2025. DOI: 10.1007/s10708-025-11460-z

[2] García-Trujillo, "'Water Is Our Mother': Eco-Spiritual Governance Among the Papallaqta of the Colombian Andes."

[3] Hayman et al., "Decolonising Water—Decolonising Personhood—Decolonising Knowledge: A Tlingit and Tagish perspective," 2021. DOI: 10.5281/zenodo.4483987

[4] حنان حمودا، الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب، (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021)، ص. 60.

[5] حنان حمودا، الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب، (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2021)، ص. 45.

يحتل الماء موقعا محوريا في طقوس التطهير والتقديس والاستعادة والتجديد، حيث تقوم المجتمعات بأداء شعائر في مواقع مائية مقدسة للحفاظ على التوازن الروحي والإيكولوجي [1] .

وفي تلال واتو لومبونغ (Watu Lumbung) بإقليم باسوروان في إندونيسيا، يجسد طقس "سلامتان سومبر آير " (Selametan Sumber Air) ممارسة تقليدية ذات طابع إسلامي تمزج بين الدعاء الديني والعادات المحلية، بهدف التعبير عن الامتنان لمصادر المياه وتعزيز معايير الحفاظ عليها[2].

وفي السياق الهندوسي في الهند، تمارس طقوس الأنهار بوجاpuja التي تؤطر الأنهار بوصفها كيانات مقدسة تستحق العبادة والحماية، كما هو الحال في الغات (ghats) بمدينة فاراناسي، حيث يتداخل التعبد الروحي مع جهود الحفاظ على المياه[3]. كما يحتضن معبد جولوتوندو (Jolotundo) في جاوة الشرقية طقس "رووات(Ruwat) "، الذي يجمع بين معارف الإثنو-فيزياء[4] وقيم الحفاظ على المياه، في مثال واضح على كيفية تجسيد الفهم البيئي داخل الممارسات الطقوسية[5].

وفي السياق المغربي، يتجلى تقديس الماء عبر طقوس شعبية متجذرة في الموروث الثقافي الذي يدمج بين الرمزية الدينية والروحية والعادات اليومية؛ فقد بين إدريس لخضر في دراسته الأنثروبولوجية بمنطقة الغرب لطقوس الماء في المتخيل الشعبي المغربي كيف ينتج الماء رمزية قوية ترتبط بالخصب والطهارة والخوارق، ويتحول عبر هذه الطقوس إلى عنصر محوري في الحياة الاجتماعية والثقافية، مما يعكس عمق الترابط بين الإنسان والماء وامتداد هذه العلاقة عبر الأجيال[6].

غير أن هذه الطقوس تقتصر على بعدها الرمزي فحسب، بل تترتب عليها آثار ملموسة في مجال الحفظ البيئي. فالمهرجانات والمراسم السنوية تنشئ إيقاعات زمنية لرصد جودة المياه وتوافرها، في حين تفرض الضوابط الطقوسية خلال هذه المناسبات قيودا على الأنشطة التي قد تكون ضارة[7]. كما تسهم الطبيعة الجماعية لهذه الطقوس في تعزيز التماسك الاجتماعي وترسيخ الإحساس بالمسؤولية المشتركة تجاه رعاية الموارد المائية وحفظها[8].

---

[1] Spiritual Ramifications of Water: The Role of Water Divinity in Some Cultures in Northern Ghana," 2025 op.cit

[2] Syamsuddini et al., "Selametan Sumber Air: Ritual Tradisional dan Kearifan Lokal Muslim di Perbukitan Watu Lumbung, Pasuruan," JURNAL ILMIAH GEMA PERENCANA, 2025. DOI: 10.61860/jigp.v4i2.240

[3] Narasimham et al., op.cit.

[4] نوع من المعرفة المحلية التي يجمعها الناس في المجتمعات التقليدية حول الظواهر الطبيعية، مثل تدفق المياه، خصائص التربة، أو الأنماط الموسمية، مع دمجها لفهم علمي مبدئي وأحيانًا ممارسات روحانية أو ثقافية.

[5] Utami, "Etnophysics and Water Conservation Values in the Ruwat Ritual of Jolotundo Temple toward SDG 6."

[6] إدريس لخضر, طقوس الماء في المتخيل الشعبي المغربي: منطقة الغرب أنموذجًا, مجلة ريحان للنشر العلمي، العدد الثامن، مارس 2021، ص ص 220- 240

[7] Syamsuddini et al., op.cit.

[8] Cachipuendo et al., op.cit.

2- القيود الاجتماعية والطقوسية

تؤدي المحظورات والقيود المرتبطة بطقوس الماء دور قواعد حفظٍ بيئي ذات طابع اجتماعي، وتستند في ذلك إلى منظومات الاعتقاد وتطبق من خلال آليات الضبط المجتمعي. إذ تعمل هذه المحظورات على تنظيم السلوك في محيط المواقع المائية المقدسة عبر تقييد الأنشطة التي قد تؤدي إلى تدهور جودة المياه أو استنزاف الموارد، ويتم الحفاظ عليها عبر جزاءات اجتماعية ورمزية بدلا من الاعتماد على الأطر القانونية الرسمية.

ففي غرب إفريقيا، تلتزم مجتمعات حوض ميكرو (Mekrou) بجملة من المحظورات التي تحظر أنشطة معينة في المواقع المائية المقدسة، حيث يعتقد أن خرق هذه القواعد يستتبع عقابا إلهيا[1]. وفي السياق الإندونيسي، تفرض المجتمعات المحلية التي تتولى حماية تجمعات الأسماك المقدسة قيودا صارمة على الصيد داخل المياه المصنفة مقدسة، وقد أسهمت هذه المحظورات فعليا في صون التنوع البيولوجي. وتظهر دراسة بدي وآخرين "بودي" (Budi) وآخرون أن الممارسات التقليدية، بما في ذلك أنظمة المحظورات، أدت إلى الحفاظ الفعال على تجمعات الأسماك في هذه البيئات، مع تحقيق نتائج إيكولوجية قابلة للقياس[2]. وعلى نحو مماثل، يعتقد في شمال غانا أن الكيانات الإلهية المرتبطة بالماء تعاقب مخالفي القواعد المقدسة، مما ينتج رادعا قويا ضد السلوكيات الضارة[3].

وتستمد هذه المحظورات فعاليتها من اندماجها العميق ضمن أنساق الاعتقاد والتنظيم الاجتماعي. فالمخالفة لا تفهم بوصفها مجرد انتهاك لقاعدة تنظيمية، بل باعتبارها خرقا أخلاقيا يهدد تماسك الجماعة ويخل بالتوازن الكوني[4]. ويؤدي هذا التأطير القيمي إلى إنتاج أنماط امتثال قد تكون أكثر تجذرا ورسوخا من القواعد القانونية الرسمية، لا سيما في السياقات التي تتسم بضعف القدرة المؤسسية على الإنفاذ.

3- نظم المعرفة المحلية والممارسات التقنية

لا يحافظ على تقديس الماء من خلال الطقوس والمحظورات فحسب، بل إن ذلك يتم أيضا عبر نظم معرفية محلية متطورة تدمج الملاحظة البيئية، والمهارات التقنية، والفهم الروحي. وتوجه هذه النظم المعرفية اختيار المواقع، وتقنيات إدارة المياه، والتخطيط الموسمي، وأنظمة الإنذار المبكر المرتبطة بندرة المياه أو تدهور جودتها.

ففي شمال غانا تمكن الممارسات التقليدية لاستكشاف مصادر المياه المجتمعات من تحديد مواقع المياه الجوفية، حيث يستخدم المتنبئون تقنيات روحية وملاحظة دقيقة لتحديد مواقع الحفر المناسبة[5]. ويشتمل طقس معبد Jolotundo

[1] Ngobi et al., op.cit.

[2] Budi et al., "The sacred waters and fish: Traditional practices and fish conservation in Indonesian communities," Aquatic Conservation: Marine and Freshwater Ecosystems, 2025. DOI: 10.1002/aqc.70163

[3] Spiritual Ramifications of Water, op.cit.

[4] Budi et al., op.cit.

[5] Spiritual Ramifications of Water, op.cit.

Templeشرق جاوة على معرفة إثنوفزيائية تشمل فهم محلي لتدفق المياه، وأنماط المواسم، والعمليات الهيدرولوجية. ويدمج هذا في ممارسات الحفظ المتوافقة مع الهدف السادس من أهداف التنمية المستدامة[1]. وفي المناطق المتوسطية، تجمع الهيدروجيولوجيا البيئية الثقافية (ecohydrogeology) بين المعرفة التقليدية بهيدرولوجيا الينابيع وإدارة المواقع المقدسة، موضحة كيف تتطور المعرفة الروحية والتقنية معا[2].

هكذا، توظف مجتمعات الأنديز أنظمة ري تقليدية تجمع بين المهارات الهندسية وجدولة الطقوس، مع استخدام رمز Chakanaلتنظيم توزيع المياه وفق المبادئ الكونية والدورات الموسمية[3]. وتظهر هذه الأنظمة فهما متقدما لديناميات أحواض المياه، وعلاقات التربة بالمياه، وآليات التوزيع العادلة. أما في منطقة Braj في في الهند، فيدمج التدبير التقليدي للمياه بين المعرفة المحلية بالتقلبات الموسمية للأمطار وتجدد المياه الجوفية وخدمات النظم البيئية (Ecosystem Services)، مع العناية والإشراف على المواقع المقدسة[4].

كما تشمل نظم المعرفة المحلية مؤشرات لرصد جودة المياه وصحة النظم البيئية. فتراقب المجتمعات التغيرات في أعداد الأسماك المقدسة، وأنماط الغطاء النباتي حول الينابيع، وتباينات التدفق الموسمية كدلائل على التغيرات البيئية، مما يتيح تنفيذ استراتيجيات إدارة تكيفية تستجيب لهذه التغيرات[5]. وتوفر هذه القدرة على الرصد، المدمجة ضمن الأطر المقدسة، أنظمة إنذار مبكر تكمل أو تتجاوز في بعض السياقات الرصد العلمي الرسمي.

4- الرقابة المجتمعية والجزاءات

تعتمد استدامة نظم المياه المقدسة بدرجة أساسية على آليات إنفاذ قائمة على المجتمع، تعمل من خلال الجزاءات الاجتماعية، وأنظمة المكانة والهيبة، وأشكال الفعل الجماعي. وعلى خلاف اللوائح التي تفرضها الدولة، ترتكز هذه الآليات على رأس المال الاجتماعي، والمعايير المشتركة، ودمج حكامة المياه ضمن منظومات أوسع من السلطة المجتمعية.

ففي مجتمعات غرب إفريقيا، تضطلع السلطات العرفية مثل الزعماء التقليديين، وكبار السن، والقيادات الدينية، بدور محوري في إنفاذ القواعد المرتبطة بالمياه، وتسوية النزاعات، وتنظيم العمل الجماعي لحماية مصادر المياه. وتعالج انتهاكات قواعد المياه المقدسة من خلال المجالس المجتمعية، حيث تتراوح العقوبات بين التوبيخ العلني، وفرض الغرامات، وفي الحالات الجسيمة قد

[1] Utami, op.cit.

[2] Pascual et al., "The Cultural Ecohydrogeology of Mediterranean-Climate Springs: A Global Review with Case Studies," Environments, 2024. DOI: 10.3390/environments11060110

[3] Cachipuendo et al., op.cit.

[4] Sharma et al., "Sacred Waters, Broken Systems: Community Experiences of Traditional Water Body Renovations in Braj, India," 2025. DOI: 10.21203/rs.3.rs-7255433/v1

[5] Pascual et al., op.cit.

تصل إلى الحرمان المؤقت أو الدائم من مزايا الانتماء المجتمعي[1]. وتستمد هذه السلطات مشروعيتها من موقعها كحارسة للتقاليد ووسيطٍ بين العوالم البشرية والروحية.

أما في السياق الإندونيسي، تشكل (adat) إطارا تنظيميا لحكامة المياه المقدسة، حيث يتولى القادة العرفيون مسؤولية الحفاظ على المحظورات، وتنظيم الطقوس، وتسوية النزاعات[2]. وتعمل هذه المؤسسات عبر عمليات تشاركية قائمة على بناء التوافق، وتبرز المسؤولية الجماعية والعدالة بين الأجيال. وبالمثل، في مجتمعات الأنديز، تدمج جمعيات مستخدمي المياه بين مبادئ الحكامة التقليدية والأشكال التنظيمية المعاصرة، حيث تدار أنظمة الري من خلال تداول القيادة والالتزامات الجماعية بالعمل[3].

وفي الواحات المغربية كذلك، تحمل الأعراف والعلاقات الاجتماعية المتعلقة بإدارة الماء دلالات قوية تترجم ممارسات جماعية قائمة على التضامن وتنظيم المشاركة في استخدام الموارد، حيث تعمل هذه الأعراف بوصفها آليات تنظيم غير رسمية تؤطر السلوك الجماعي تجاه المصادر المائية وتحافظ على استخدامها المستدام ، دون إحداث صدام مع أنظمة الحكامة الرسمية[4]

وتتعزز الجزاءات الاجتماعية عبر أنظمة مكانة تكافئ ممارسات الرعاية والحفاظ، وتعاقب المخالفات. فالأفراد الذين يظهرون التزاما متميزا بحماية مصادر المياه يكتسبون مكانة اجتماعية ونفوذا رمزيا، في حين يتعرض المخالفون لضرر في السمعة يتجاوز حدود العقوبة المباشرة. وينتج عن ذلك بنى تحفيزية تواءم بين السلوك الفردي وأهداف الحفظ الجماعي. غير أن فعالية هذه الآليات تظل مشروطة بدرجة التماسك الاجتماعي، وتشارك القيم، ومستوى الثقة في شرعية السلطات العرفية، وهي عوامل قد تتعرض للتآكل بفعل عمليات التحديث والتحول الاجتماعي[5].

ثالثا– سيرورات التحول في ظل الحداثة

يتناول هذا المحور سيرورات التحول التي تطال أنظمة تقديس المياه في سياق الحداثة، من خلال تحليل ديناميات الانحسار والتهميش، وتزايد نزعات تسليع الموارد، فضلا عن بروز أشكال من الدمج والمرونة في مواجهة هذه التحولات.

1– سيرورة الانحسار والتهميش

أدت عمليات التحديث، بما في ذلك النمو السكاني، والتحضر، والتصنيع، وانتشار اقتصاد السوق، إلى إضعاف ملحوظ لأنظمة تقديس المياه التقليدية في العديد من السياقات. ويتم ذلك عبر مسارات متعددة، من أبرزها الضغط الديمغرافي على الموارد المائية، وإدخال نماذج بديلة للتدبير يغلب عليها الطابع التكنوقراطي، وتراجع دور السلطات العرفية، والتحولات الجيلية في منظومات الاعتقاد، فضلا عن التغيرات المادية التي تطال المشاهد الطبيعية المقدسة.

---

[1] Ngobi et al., op.cit.

[2] Budi et al., op.cit.

[3] Cachipuendo et al., op.cit.

[4] حبران حسن، "المياه والبيئة في الواحات المغربية: أسئلة الرواسب الثقافية والتنمية المستدامة" ، مدارات تاريخية، المجلد الأول، العدد الثالث، 2019. ص ص 330- 347.

[5] Ngobi et al., op.cit.

ففي المجالات الواحية بالمغرب كان تدخلها، أي عمليات التحديث، عنصرا مشوشا، لما أضافته من مشروعات (تنموية) وقيم جديدة تتنافى مع القيم التقليدية، وكانت النتيجة أنها خلخلت المعتقدات والقيم التقليدية[1]. فقد شهدت الواحات المغربية مجموعة من الاستثمارات الرأسمالية في قطاعات النخيل، والصبار مثلا، مست بالأساس الفرشات المائية، وانعكس تأثير ذلك على القيم التقليدية والمقدسات المائية، بل خلخل النظام الاجتماعي والثقافي. وعلى الرغم من استمرارية بعض الرواسب الثقافية خاصة القبلية، فإنها لم تبقَ بالصورة نفسها التي كانت عليها من قبل خاصة في واحات فركلة، غريس، تودغى [2].

هكذا، ففي السياقات المغربية شبه القاحلة، أعد وصول مياه السقي وإدخال تغيرات في أنماط استخدامها تشكيل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المناطق الريفية، وأدى إلى تحولات في نظم السقي التقليدية إلى جانب آثار ديموغرافية وتنموية واسعة، مما يبرز كيف يمكن للتحولات الحديثة أن تضعف الممارسات التقليدية المرتبطة بالماء[3].

وفي حوض ميكرو ، أدى تزايد عدد السكان، وتصاعد السلوكيات الربحية، وتفاقم التغير المناخي إلى ما وصف بـ"الركود المتزايد" في ممارسات حماية المياه المحلية، حيث تسببت الأنشطة البشرية في اختفاء عدد من نقاط المياه[4]. كما أن الآليات القانونية والمؤسسية الحديثة لإدارة المياه غالبا ما لا تحظى بامتثال السكان. وبالمثل، في أمريكا الجنوبية، أسفرت الممارسات الاستعمارية وتوسع الزراعة الصناعية عن "آثار مدمرة على الثقافات والأنظمة البيئية"، الأمر الذي أدى إلى تعطيل الممارسات التقليدية المرتبطة بالمياه وتقويض نظم الحكامة المائية لدى السكان الأصليين[5].

كما يؤدي التحضر والتصنيع إلى إعادة تشكيل المشاهد الطبيعية المقدسة ماديا، بما يفضي في كثير من الحالات إلى تدمير أو تدهور المواقع المائية المقدسة. ففي الهند، أسهمت الأنشطة الصناعية في تهديد مواقع مقدسة مثل كاتاس راج (Katas Raj)، حيث أدى التلوث واستخراج المياه إلى تقويض كل من السلامة البيئية والممارسات الدينية [6]. وتشير دراسة شارما وآخرين (Sharma)إلى أن عمليات ترميم المسطحات المائية التقليدية في منطقة براج(Braj) ، رغم سعيها إلى استعادة الطابع المقدس، قد أفضت أحيانا إلى إضعاف العلاقة المجتمعية مع هذه المواقع، منتجة ما أطلقوا عليه "أنظمة مكسورة" رغم تحقق الترميم المادي[7].

---

[1] حبران، حسن. الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب. إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، يناير 2022. ص 201.

[2] حبران، حسن. الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب. إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، يناير 2022. ص 201-202.

[3] إميدة الموساوي و حرّو عزي، « مياه السقي ودورها في إعداد وتنمية المجالات الفلاحية شبه الجافة: نموذج الدائرة السقوية في سهل تانديت (شمال-شرقي الأطلس المتوسط، المغرب) »، Géomatique et Gestion des Territoires، 2024.

[4] Ngobi et al., op.cit.

[5] Catalão et al., op.cit.

[6] Mushtaq, "Sacred waters, dying faith: hydropolitics and industrial impact on katas raj's cultural continuity," 2025. DOI: 10.63878/jalt1395.

[7] Sharma et al., op.cit.

وتتفاقم هذه التحولات بفعل التغيرات الجيلية. فالأجيال الشابة، التي تتعرض لأنظمة تعليمية رسمية تعلي من شأن المعرفة العلمية على حساب المعرفة التقليدية، قد تنظر إلى ممارسات تقديس المياه بوصفها خرافات لا آليات حفظ مشروعة[1]. كما أن الهجرة إلى المدن بحثا عن العمل تضعف نقل المعرفة بين الأجيال وتقلل من المشاركة في الطقوس. إضافة إلى ذلك، قد تسهم سياسات التعليم الرسمي أو جهود التحول الديني في تقويض الممارسات التقليدية، من خلال تأطيرها كعوائق أمام التحديث[2].

2- سيرورة تسليع الموارد

يؤدي تحول الماء من كيان مقدس إلى سلعة اقتصادية إلى نشوء توترات بنيوية عميقة تقوض أنظمة الحكامة التقليدية والأطر الأخلاقية المرتبطة بها. وتنطوي عمليات التسليع على إسناد قيمة نقدية للمياه، وخلق أسواق لتنظيم الوصول إليها، ودمج إدارتها ضمن نظم اقتصادية موجهة نحو تحقيق الربح.

هكذا أسفر انتقال استخدام المياه المقدسة في جبل باناهو (Mount Banahaw) في الفلبين من وظيفة روحية غير استهلاكية إلى استعمالات منزلية وتجارية استهلاكية عن صراعات بين فاعلين يحملون منظومات قيم ومصالح متباينة. فالحجاج الدينيون ينظرون إلى الماء بوصفه عنصرا مقدسا لا غنى عنه في الممارسة الروحية، في حين تعطي مؤسسات تزويد المياه الرسمية الأولوية للإمداد المنزلي واسترداد التكاليف، بينما يسعى الفاعلون التجاريون إلى استثمار الفرص الربحية. وتتفاقم هذه التوترات في ظل ندرة المياه، التي تعزز المنافسة وتثير إشكالات تتعلق بأولويات التخصيص[3].

ويمتد أثر التسليع إلى إعادة توزيع المنافع والتكاليف. فعندما تكتسب المياه قيمة سوقية، غالبا ما تستحوذ الجهات الخارجية من مثل الشركات، ومرافق المياه الحضرية، على العوائد الاقتصادية، في حين تتحمل المجتمعات المحلية الأعباء البيئية والثقافية[4]. ويثير ذلك إشكالات تتعلق بالعدالة البيئية، لا سيما عندما تصادر المواقع المقدسة أو تتعرض للتدهور لأغراض تجارية. ففي موقع كاتاس راج (Katas Raj) في باكستان، أدى استخراج المياه لأغراض صناعية إلى تهديد مستويات المياه في البركة المقدسة، مما قوض استمرارية ممارسات دينية وثقافية ممتدة عبر قرون[5].

ومع ذلك، لا تتخذ عملية التسليع نمطا موحدا. فقد نجحت بعض المجتمعات في التوصل إلى ترتيبات هجينة تستوعب الاستخدامات المقدسة والاقتصادية معا. ففي جبل باناهو، تسعى مقاربات الحكامة متعددة المستويات إلى تحقيق توازن بين

[1] Ngobi et al., op.cit.

[2] Catalão et al., op.cit.

[3] Dayo et al., "When Sacred Water Becomes an Economic Good: Tensions and Governance Challenges in Mount Banahaw, Philippines." DOI: 10.47125/jesam/2018_2/10

[4] Mushtaq, op.cit.

[5] Mushtaq, op.cit.

الأبعاد الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، رغم استمرار التوترات[1]. وتشير هذه الحالات إلى أن آثار التسليع تظل رهينة بعلاقات السلطة، وقدرة المجتمعات على الدفاع عن حقوقها وقيمها ضمن سياقات التحديث.

3- سيرورةالدمج والمرونة

على الرغم من الضغوط الناتجة عن تسليع المياه، أظهرت العديد من المجتمعات قدرة ملحوظة على المرونة التكيفية، من خلال إنشاء أنظمة هجينة تدمج بين الممارسات المقدسة التقليدية بين الحكامة والتقنيات الحديثة. ولا تمثل هذه العمليات مجرد استمرار للتقاليد أو استسلام كامل للحداثة، بل تعكس أساليب تكيف إبداعية تنتقي بعناية العناصر الجديدة مع الحفاظ على القيم والممارسات الأساسية.

ففي حوض ميكرو ، يوصي الباحثون بدمج استراتيجيات الحماية المحلية مع الأدوات القانونية الوطنية والدولية، مع الاعتراف بأن القواعد الحديثة وحدها غير كافية بالنظر إلى محدودية مستويات القراءة والكتابة وعمق التعقيدات السوسيو-ثقافية[2]. وتهدف هذه المقاربة الهجينة إلى توظيف الشرعية والمعرفة المحلية التي ترتكز عليها النظم التقليدية، مع الاستفادة في الوقت ذاته من الموارد التي تتيحها المؤسسات الرسمية وقدرتها على إنفاذ القواعد. وبالمثل، هناك وعي متزايد في أمريكا الجنوبية بأن أساليب السكان الأصليين في التعامل مع المياه توفر دروسا قيمة للاستدامة، مما دفع إلى جهود لإعادة إحياء التراث المرتبط بالمياه وحمايته ضمن توجهات الحكامة المعاصرة[3].

وتقدم السياقات الحضرية أمثلة ملحوظة على التهجين. ففي فاراناسي(Varanasi) ، الهند، تسعى مشاريع الجمع بين الحماية والتنمية إلى إحياء المياه المقدسة والنظم البيئية التراثية من خلال المزاوجة بين الممارسات الدينية التقليدية والهندسة البيئية الحديثة والمشاركة المجتمعية[4]. وتعترف هذه المشاريع بأن حماية الموروث المقدس يتطلب احترام القيم الدينية مع مواجهة التحديات المعاصرة المتمثلة في التلوث، والضغط السكاني، واحتياجات البنية التحتية.

كما أعادت بعض المجتمعات توظيف المعرفة التقليدية بالتوازي مع الأدوات الحديثة. ففي شمال غانا، تستخدم ممارسات التنجيم المائي التقليدية بالتوازي مع تقنيات الحفر الحديثة، حيث يساعد العرافون في اختيار المواقع التي يتم تطويرها باستخدام الهندسة المعاصرة[5]. وفي مناطق المناخ المتوسطي، تدمج علوم الهيدرولوجيا الثقافية (cultural ecohydrogeology) بين إدارة الينابيع التقليدية والمراقبة العلمية الهيدرولوجية، مما ينتج نظم معرفة تجمع بين المعرفة المحلية والخبرات العلمية[6].

---

[1] Dayo et al., op.cit.

[2] Ngobi et al., op.cit.

[3] Catalão et al., op.cit.

[4] Water heritage Varanasi: an integrated conservation and development project for reviving the sacred waters and heritage ecologies," 2025. DOI: 10.26127/btuopen-6526

[5] Spiritual Ramifications of Water, op.cit.

[6] Pascual et al., op.cit.

ويتم التهجين أيضا من خلال الابتكارات القانونية والمؤسسية. فقد بدأت بعض الدول بالاعتراف بحقوق المياه العرفية وحماية المواقع المقدسة ضمن الأطر القانونية الرسمية، مما أدى إلى إنشاء نظم حكامة متعددة[1]. وتدافع حركات حكامة المياه لدى السكان الأصليين في كندا وأماكن أخرى عن الاعتراف القانوني بالماء باعتباره قريبا – (ontologie de parenté kinship ontology)ومنح السكان الأصليين السلطة في اتخاذ قرارات إدارة المياه[2]. وتسعى هذه الجهود إلى إزالة رواسب الاستعمار من حكامة المياه من خلال تحدي الافتراضات الأنطولوجية للنماذج الغربية لإدارة الموارد.

عموما، ترتبط فعالية النماذج الهجينة بطبيعة علاقات السلطة، وبكيفية تنظيم عمل المؤسسات، وبمدى اعتراف الأنظمة الرسمية بالمعرفة التقليدية ودمجها بصورة فعلية، لا الاكتفاء بتوظيفها شكليا لمجرد إضفاء الشرعية[3]. وهو ما يستدعي استحضار تمثلات السكان الأصليين ونظمهم في التدبير، بدل الاكتفاء بمقاربات تعددية سطحية.

الخلاصة

توضح هذه المحاولة أن تقديس المياه يمثل سيرورة سوسيوثقافية قوية ساهمت تاريخيا في استدامة ممارسات الحفظ من خلال أطر أخلاقية، والصيانة الطقسية، والحكامة القائمة على المجتمع المحلي. ففي سياقات جغرافية وثقافية متنوعة بنت المجتمعات مفهوم الماء كمقدس، مما أدى إلى إنشاء أنظمة معيارية تنظم السلوك، وتعزز الرعاية البيئية، وتحافظ على سلامة النظم البيئية.

وعلى الرغم من أن التحديث، والتسليع، وتدخل الدولة قد أدى إلى تآكل العديد من أنظمة المياه المقدسة التقليدية، تكشف الأدبيات عن قدرة كبيرة على الصمود والتكيف والتهجين. فالمجتمعات المحلية ليست مجرد ضحايا سلبيين للتحديث، بل فاعلون نشطون يدمجون عناصر جديدة بشكل انتقائي مع الدفاع عن قيمهم الجوهرية وما يرتبط بها من ممارسات. إذ تظهر حالات الحكامة الهجينة الناجحة أن الأنظمة التقليدية والرسمية يمكن دمجها بشكل مثمر عندما تكون علاقات السلطة متوازنة وعندما تحترم المؤسسات الرسمية المعرفة والسلطة المحلية بشكل فعلي.

وهو ما من شأنه أن يوفر أخلاقيات تتحدى الأنانية الإنسانية وثنائية الطبيعة والثقافة، ويقدم أسس بديلة للتدبير البيئي. ويتطلب تحقيق هذا الإمكان:

- الاعتراف القانوني بحقوق المياه القائمة على الأعراف، وحماية المواقع التي تعد مقدسة.
- اعتماد نماذج حكامة متعددة المستويات تراعي تنوع المتدخلين وتباين أنظمة المعرفة.
- إدماج المعرفة البيئية التقليدية في تخطيط تدبير المياه ومراقبتها.
- وضع ضوابط تحد من تسليع المياه المقدسة وتحميها من ضغوط السوق.

[1] Hayman et al., op.cit.

[2] Hayman et al., op.cit.

[3] Catalão et al., op.cit.

- مراجعة أنماط حكامة المياه المتأثرة بالإرث الاستعماري، بما يتيح إعطاء مكانة أكبر لتصورات وسلطات المجتمعات المحلية والسكان الأصليين.

لائحة المراجع:

- **أولا: المراجع باللغة العربية**

أحمد، عالدين هـ. ومُحَمَّد كريم، م. (2022). رمزية الماء في الشعر الأموي والعباسي Symbolism of Water : in the Umayyad and Abbasid Poetry. SIBAWAYH Arabic Language and Education, 3(1)، 36-51. https://doi.org/10.37134/sibawayh.vol3.1.3.2022

إدريس لخضر. (2021). طقوس الماء في المتخيل الشعبي المغربي: منطقة الغرب أنموذجًا. مجلة ريحان للنشر العلمي، العدد الثامن، ص 220-240.

إميدة الموساوي و حرو عزي. (2024). مياه السقي ودورها في إعداد وتنمية المجالات الفلاحية شبه الجافة: نموذج الدائرة السقوية في سهل تانديت (شمال-شرقي الأطلس المتوسط، المغرب Géomatique et Gestion des Territoires).

حبران، حسن. (2019). المياه والبيئة في الواحات المغربية: أسئلة الرواسب الثقافية والتنمية المستدامة. مدارات تاريخية، المجلد الأول، العدد الثالث، ص 330-347.

حبران، حسن. (2022). الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب. إسطنبول: مركز حرمون للدراسات المعاصرة، ص 201-202.

حنان حمودا. (2021). الماء وصناعة المقدس: دراسة أنثروبولوجية لبنيات المجتمع الواحي بالمغرب. الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 45، 60.

ثانياً: المراجع باللغة الأجنبية

Budi et al. (2025). The sacred waters and fish: Traditional practices and fish conservation in Indonesian communities. Aquatic Conservation: Marine and Freshwater Ecosystems. DOI: 10.1002/aqc.70163

Cachipuendo et al. (2025). The Chakana: a symbol of the Andean worldview in community water management, and a form of governance of life. Ecology and Society. DOI: 10.5751/es-16388-300324

Catalão et al. (2023). Water and Heritage: Sustainable Alternatives Based on the Worldviews of South American Communities. Blue Papers. DOI: 10.58981/bluepapers.2023.2.02

Dayo et al. (2018). When Sacred Water Becomes an Economic Good: Tensions and Governance Challenges in Mount Banahaw, Philippines. DOI: 10.47125/jesam/2018_2/10

García-Trujillo. 'Water Is Our Mother': Eco-Spiritual Governance Among the Papallaqta of the Colombian Andes.

Hayman et al. (2021). Decolonising Water—Decolonising Personhood—Decolonising Knowledge: A Tlingit and Tagish perspective. DOI: 10.5281/zenodo.4483987

Mushtaq. (2025). Sacred waters, dying faith: hydropolitics and industrial impact on Katas Raj's cultural continuity. DOI: 10.63878/jalt1395

Narasimham et al. (2025). Sacred streams and traditional eco-consciousness: investigating the role of river rituals in Sanātana Dharma. GeoJournal. DOI: 10.1007/s10708-025-11460-z

Ngobi et al. (2019). Regles traditionnelles de protection des ressources en eau dans le bassin versant de la Mekrou (sous bassin beninois du fleuve Niger, Afrique de l'Ouest). DOI: 10.5281/zenodo.3477943

Pascual et al. (2024). The Cultural Ecohydrogeology of Mediterranean-Climate Springs: A Global Review with Case Studies. Environments. DOI: 10.3390/environments11060110

Sharma et al. (2025). Sacred Waters, Broken Systems: Community Experiences of Traditional Water Body Renovations in Braj, India. DOI: 10.21203/rs.3.rs-7255433/v1

Spiritual Ramifications of Water: The Role of Water Divinity in Some Cultures in Northern Ghana. (2025). DOI: 10.5281/zenodo.17252712

Syamsuddini et al. (2025). Selametan Sumber Air: Ritual Tradisional dan Kearifan Lokal Muslim di Perbukitan Watu Lumbung, Pasuruan. JURNAL ILMIAH GEMA PERENCANA. DOI: 10.61860/jigp.v4i2.240

Utami. Etnophysics and Water Conservation Values in the Ruwat Ritual of Jolotundo Temple toward SDG 6.

Water heritage Varanasi: an integrated conservation and development project for reviving the sacred waters and heritage ecologies. (2025). DOI: 10.26127/btuopen-6526.